

النص الغائب و السياق في تفكيكة دريدا

The Absent Text and Context in Derrida's Deconstruction

فاتح علاق

معمر صاڤق *

جامعة الجزائر ٢ ،

جامعة الجزائر ٢ ،

(الجزائر)

(الجزائر)

a.fateh@univ-alger2.dz

sadek.maamri@gmail.com

تاريخ القبول: ٢٠٢٥/١١/٢٨٠ النشر ٢٠٢٥/١٢/١١

تاريخ الاستلام: ٢٠٢٥/١١/١٦

ملخص:

تحاول هذه الدراسة أن تقر فلسفة دريدا المتعلقة بالسياق والنص الغائب بوصفهما معضلة في تفكيك الوعي والثقافة، فالسياق، والغياب، والاختلاف، أساس نظريته في تفكيك النصوص، فحين يسلط جاك دريدا الضوء على عدم استقرار المعنى، من خلال هذه الآليات فإنه ينتقد إمكان التفسير الثابت الموضوعي، ويعتبر السياق - في هذه الحال - لا يشكل خلفية النصوص، بل هو قوة متغيرة تشكل المعنى وترتبط باللغة. ومن هنا تصبح النسبية مثار جدل حقيقي في تفكيره ووعيه النقدي. فما هي المخاطر التي يمكن أن تسائل وعينا حول هذين المصطلحين في فكر دريدا؟

الكلمات المفتاحية: دريدا، التفكيكية، السياق، الغياب، التأجيل، الاختلاف.

Abstract

This study attempts to interpret Derrida's philosophy concerning context and the absent text as a dilemma in the deconstruction of consciousness and culture. Context, absence, and difference form the foundation of his theory in deconstructing texts. When Jacques Derrida highlights the instability of meaning through these mechanisms, he critiques the possibility of a fixed, objective interpretation, considering context—not as the background of texts—but as a dynamic force that shapes meaning and is connected to language. Hence, relativity becomes a subject of genuine debate in his thought and critical awareness. What cautions might challenge our understanding of these two terms in Derrida's philosophy?

KeyWords: Derrida, deconstruction, context, absence, deferral, difference.

* المؤلف المرسل معمر صاڤق

مقدمة

تعد فلسفة دريدا في التفكيك انعطافة قوية وحاسمة في التفكير الغربي، وفي القرن العشرين، لما انطوت عليه من نظرة مختلفة للنص والمعنى والتأويل باعتبارها آليات تحليل النصوص ومفاهيم قارة في الفكر التقليدي، فقد واجه من خلال فلسفته تلك المقولات الفلسفية التي أكدتها الميتافيزيقا الكلاسيكية منذ زمن أرسطو، ومن هنا نرى كيفية تحدي الفرضيات الفلسفية المتعلقة بالحقيقة والمعنى واللغة، مقدمة برؤية جديدة يمكن من خلالها إعادة النظر في استقرار المعنى والنص ذاته.^١ وقد أسس دريدا مفهوم التفكيك من خلال نقده للفكر البنيوي ومقولاته القارة، فوجود معنى ثابت وحقيقة مطلقة أمر لا يصادق عليه ولا يقبله كأساس لإدراك المعنى وفهم النصوص. من رحم رفض المركزية ولد لديه مفهوم التفكيك القائم على ركيزتين بخلفية فلسفية، السياق والغياب، فهما مفتاحا الكشف عن المعنى وعدم استقراره في نفس الوقت، أساسا للتأجيل وسيرورة المعنى، وهما الركن الركين في تفكيكه دريدا.

فالتفكيك من خلال الرؤية السابقة ليس منهجا ولا أداة لتحليل النصوص، لكنه موقف فلسفي يسعى لإعادة بناء المفاهيم والتعاريف الكامنة في الوعي التقليدي للفكر واللغة، وأساس هذا الموقف الطبيعة المتحولة للمعنى، فاللغة بوصفها نظاما من العلامات، لا تنقل المعنى نقلا حضوريا مباشرا، ولكنها تحيله إلى فضاء التأويل المتعدد تبعا لتبدل الثقافة والزمن والسياق، وهكذا لا يستمد المعنى حقيقته من مركز ثابت أو حقيقة مطلقة، بل من الاختلافات بين السياقات وحتى العلامات نفسها، فهو بذلك سيبقى مؤجلا على الدوام مع كل قراءة يختلف فيها السياق/ والتأويل، التلقي/ الزمن، فالحضور لا يتحقق لها ولا في أي لحظة بعينها. فالمعنى لا يحضر بذاته، بل يبقى قابلا للتحوّل والانفتاح.

وإذا كنا سنركز على تحليل نقدي لمفهومي الغياب والسياق في فلسفة دريدا باعتبارهما عماد تصوره للمعنى، حيث الحركة المستمرة وغير المستقرة بين الغياب والحضور، فالسياق في النهاية ليس ذلك الإطار الثابت الذي يحيط بالمعنى ويظهره، بل هو ذلك المجال الديناميكي المتغير على الدوام الذي يشكل التأويل ويعيد بناءه في كل مرة. وأما الغياب من وجهة نظر دريدا فإن حضوره مواز لما يظهر على سطح النص، فما يغيب أو يهمل في النص يملك نفس القوة والتأثير لما يحضر ويظهر. ولكنهما في نظر دريدا لا ينفصلان عن بعضهما، فجذلية الحضور والغياب تفاعلية بامتياز. فالمعنى في النهاية لا يمكن القبض عليه كحقيقة مطلقة أو ثابتة بل هو في صيرورة دائمة ضمن شبكة من الاختلاف والتأجيل.

¹ Davis, Kathleen. "Deconstruction." *Routledge encyclopedia of translation studies*. Routledge, 2019. 139-142.

من هنا جاء السؤال المشروع: ألا يفضي عدم استقرار المعنى، وإطلاق الاختلاف والتأجيل إلى منتهاهما، إلى نوع من النسبية التي تدفع باتجاه تقويض أي معنى مشترك أو موضوعي، وبالنهاية إلى عدم الجدوى من التفكير واللغة أساساً؟

والسؤال الثاني هل يمكن وصفه بكونه منهجاً قابلاً للتطبيق في مجالات واقعية كالسياسة و النظرية الاجتماعية و الأخلاقية ؟ حيث المعنى المستقر أساس هذه المجالات، والحاجة إليه أمثل.

وإذا كان مشروع دريدا قد نشأ ضمن سياق مراجعات الأسس المعرفية الكبرى للحقيقة والمعنى، وأقول النبوية باعتبارها حركة فكرية وفلسفية استقرت على أن اللغة والثقافة يمكن إدراكهما وفهماهما من خلال بنى ثابتة وكامنة في النصوص وفي اللغة، فعلى سبيل المثال يرى فردينان دو سوسير أن المعنى يظهر من خلال العلاقات بين العلامات داخل نظام لغوي مغلق، فافتراض ثبات البنية، واستقرار إنتاجية المعنى والدلالة، هي مكنم الجدل والتعدد بالنسبة إليه. ومن هنا قدم رؤية مختلفة باتجاه انفتاح النص ولا نهائية المعنى والتأويل، حيث لا وجود لمركز أو حضور مستقر.

مسار التفكيك

أسيء فهم مصطلح التفكيك (deconstruction) في كثير من دوائر الثقافة باعتباره مجرد عملية نزقة لتهدم بنى فكرية قارة، فسيولة المعنى وآلية التأجيل تهدم فكرة استقرار المعنى الذي بني عليه التفكير الكلاسيكي، والوعي الإنساني آماله في إدراك العالم والواقع بشكل موضوعي، غير أن التفكيك في جوهره محاولة لكشف المفارقات والمضمرات والتوترات الكامنة في النصوص والمفاهيم، فالتفكيكية لا تسعى إلى الإمساك بالمعنى، بقدر ما تحاول الكشف عن الكيفية التي يتكون بها، والتحول والزعزعة ولا استقرار الجوهرين في طبيعته، فاللغة بما هي نظام من العلامات، لا تنقل المعنى مباشرة، بل تعتمد جوهرياً على الاختلاف بين الألفاظ داخل نسق اللغة، كما أن المعنى لا يفهم بمجرد إحالته إلى الواقع الخارجي.

من هنا نفهم طبيعة التأجيل في فلسفة دريدا، فالمعنى في مفهومه مؤجل دائماً، حيث يخضع على الدوام لإعادة التأويل المستمرة عبر الثقافة والزمان^٢.

ولعل الإشكالية الكبرى التي يبرزها تفكيك دريدا هي نقدهُ فكرة البحث عن جوهر ومركز ثابت للمعنى والحقيقة في الفكر الميتافيزيقي، فقد فكك الثنائيات المتضادة التي شكلت عصب الفكر الغربي، كالحضور/ الغياب، القول/

² Derrida, Jacques. Of Grammatology. Translated by Gayatri Chakravorty Spivak, Johns Hopkins University Press, 1976, pp. 72-90.

الكتابة، الصدق/الزيف. واعتبر أنها تخلق ترانبيات في المعنى حين تؤسس لتفوق أحدهما، في حين أن المفترض هو توقف كل حد من الثنائية على الآخر حتماً، وما الاستقرار الظاهري في النظرة الميتافيزيقية إلا وهما لغويا وفكريا ليس إلا.

ويظهر هذا المفهوم جلياً في تحليله العلاقة بين القول والكتابة؛ فالكتابة وكما يبين ليست تمثيلاً للقول، بل هي نظام تواصل يقيم بذاته، وتحمل كما يحمل القول تعقيداته الخاصة. من هنا يعاد فهم العلاقة بين الحضور والغياب في توليد المعنى، الذي لا يمتلك حضوراً مكتملاً^٣.

إن السياق والغياب في فكر دريدا لهما دور محوري في فهم عدم استقرار المعنى، فالسياق ليس خلفية ثابتة تنتج داخلها الدلالة، بل هو تلك القوة الفاعلة التي تشكل مضمون التأويل، وتعيد توجيهه في كل مرة. فالمعنى مشروط بطروف إنتاجه وتأويله، ومتغير بتغير تلك السياقات^٤.

وأما الغياب فهو حضور من نوع مختلف، فإذا لم يظهر في النص مادياً فلا يعني ذلك أنه معدوم، بل هو عنصر أساسي في اكتشاف المعنى وتحليله، وإذا كانت الفلسفة التقليدية لا تحتم إلا ما هو حاضر، فإنها بالضرورة تغفل أهمية ما يستبعد أو يسكت عنه في النص، أو يسقط حتى. لأنه يسهم بقدر ما يسهم الحضور في تشكيل المعنى والدلالة، فالفاعل بين الحضور والغياب أساس التأويل وإن ظهر التأويل فعلاً معقداً، فالقارئ مدعو أن يقرأ ما كتب وحضر وما لم يكتب وغاب في آن معاً. وإلا فلا يستبين المعنى الكامن في غمق النص^٥.

يمكننا القول أن تفكيكية دريدا إعادة لصياغة مفاهيم التأويل والمعنى، ولكنه في الوقت ذاته انطوى على تعقيد في مشروعه الفلسفي، وخاصة مفهومي السياق والغياب، حيث يجسدان الإمكانات والصعوبات في تعامل مع عدم استقرار المعنى، فثنائية الحضور والغياب أساس بناء المعنى ترتبط بالسياق في إعادة بناء الفهم والتأويل.

غير أن هذا الانفتاح يثير كثيراً من الاعتراضات، لأنه في نظر الكثير يفضي إلى نسبية مطلقة تجعل من كل التأويلات المحتملة متكافئة حتى ولو كانت متناقضة، مما يضعف إمكانية المعنى المشترك الموضوعي، والذي يرفضه دريدا مسبقاً، كما أنها من جهة أخرى تتساءل عن جدوى تطبيق هذه المفاهيم في حقول الأخلاق والسياسة والاجتماع، والسؤال الضروري هل يؤسس التفكيك لفعل أخلاقي مستقر^٦.

3 Derrida, Jacques. *Margins of Philosophy*. Translated by Alan Bass, University of Chicago Press, 1982, pp. 307–330.

4 Critchley, Simon, and Timothy Mooney. "Deconstruction and Derrida." *Continental philosophy in the 20th century*. Routledge, 2015. 487-519

5 Barry, Peter. *Beginning Theory: An Introduction to Literary and Cultural Theory*. 4th edition, Manchester University Press, 2017, pp. 79–82.

٦ سعيد، إدوارد. الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق. ترجمة: محمد عناني، دار رؤية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦، ص. ٥٠-٧٠.

ومن خلال إعادة تقييم لمفهوم السياق عند دريدا، يبرز اضطراب السياق وعدم ثباته الذي يقضي على أي محاولة لتثبيت المعنى، فالسياق نفسه يظل متحولاً ومتحدداً، حيث يعيد في كل مرة تشكيل العلاقات بين الدلالات وعلاماتها. ولكن هذا المفهوم للسياق ليس لخلل في السياق نفسه، بل سمة جوهرية ثابتة في بنية المعنى^٧.

ولأجل ذلك امتد منظور دريدا لمجال القانون، حيث فهم النصوص القانونية وتأويلها يعتمد إلى حد بعيد على السياقات، ولأجل ذلك يشير بالكين إلى أن القوانين أو النصوص القانونية لا يمكن تفسيرها تفسيراً نهائياً لأن معناها يتغير بتغير سياقاتها^٨، وهذا ما يؤدي عادة إلى تحولات في فهم المبادئ القانونية وواقعية تطبيقاتها، وما يجعل تأويل النصوص يراعي ضرورة الطابع الديناميكي للسياق في ظل التغيرات الثقافية والسياسية والاجتماعية.

إن مفهوم دريدا للسياق كجزء من إنتاج المعنى، وبوصفه غير ثابت ومتغير، يمثل انحرافاً كلياً عن المسلمات الفلسفية السابقة، فدريدا يتكئ على ديناميكية السياق واستحالة المعنى الثابت، حيث يعصف بالفرضيات اللغوسنترية التي تبنى على الحضور. ولكن هذا المفهوم في نظر دريدا ليس دعوى إلى الفوضى كما يدعي خصومه، بل هو دعوة إلى تقبل الآخر وانفتاح الدلالة وتعدد المعنى إلى غير نهاية مقرر، فعلاقة المعنى بالسياقات تثري الوعي باللغة والتمثيل، وتعيد الوعي بطبيعة اللغة والتفكير، فهو وإن ركز على انفتاح المعنى، يقدم أوجها متعددة لفهم تعقيدات المعنى في فكرنا المعاصر، ويسمح بتعدد القراءات احتراماً للآخر المختلف.

مفهوم الغياب والحضور

من المفاهيم المركزية للتفكير الغياب في مقابل الحضور، فيعيد مراجعة تعريفه إذ يصفه بكونه عنصراً جوهرياً في إنتاج المعنى وتأويله أيضاً، فالغياب قوة فاعلة تعيد الفهم وتزعزع الثبات، أما حضور المعنى من خلال المفاهيم أو الأشياء أو نية المؤلف فهو تفضيل مبالغ فيه من الفلسفة التقليدية، وأولوية مشكوك فيها. فالمعنى لا ينبثق إلا من تفاعل الحضور مع الغياب، فالالاقتصاد الاختلافي (economy of différence) وحده يمكن المعنى من الظهور عبر التأجيل والتكرار^٩.

دريدا يزعزع أولية القول على الكتابة باعتباره حضوراً فوراً للفكر والمعنى، فالكتابة ترتبط جوهرياً بغياب المؤلف، فهي تحمل بطبيعتها آثار الغياب، وتكشف سيولة المعنى وصيرورته، إذ تبقى قابلة للتأويل وإعادة التأويل حتى

⁷ Derrida, Jacques, and Derek Attridge. Acts of literature. Routledge, 2017, pp. 250-370

⁸ Balkin, Jack M. "Deconstructive Practice and Legal Theory – Part I." The Yale Law Journal, vol. 96, no. 4, Mar. 1987, pp. 743-786.

⁹ Gasché, Rodolphe. The tain of the mirror: Derrida and the philosophy of reflection. Harvard University Press, 1986, pp. 43-45

مع انفصالها عن مصدرها. ويبقى ما يصفه دريدا اختلافا مؤجلا (différance) هو يكشف الدور التكويني للغياب في صياغة المعنى.

فالغياب حاضر وإن كان مفارقا في النصوص، حيث يؤثر في التأويل من خلال الفجوات والحذف والصمت، ويتجسد من خلال ما يسميه دريدا الأثر (trace) حيث يشير إلى أثر الغياب داخل الحضور، فبقايا الغياب تبقى مؤثرة، والمعنى في النص لا يفهم فقط مما يذكر، بل أيضا مما لا يذكر، فالفجوات هي جزء من حضور النص، توجه التأويل، وتخلق طبقات المعنى^{١٠}. "فالإضافة ليست حضورًا ولا غيابًا، بل هي لعب اختلافاً" فاللعب بالاختلافات، يعيد تشكيل العلاقة بين النص والتفسير والسياق، إذ المعنى لا يحدده النص، بل اللعب بالشبكة المتحركة من السياقات المتعددة والعلامات غير المستقرة.

ولهذا يقوم دريدا بتفكيك النص من خلال الحضور الأصلي، مؤكداً أن الأصل يحمل دوماً آثاراً للغياب، فالأصل الدلالي في النص ليس حضوراً نقياً وخالصاً، بل هو بنية تتشكل من الفجوات والتأجيل وآثار الغياب.

هذه النظرة تدفع إلى التشكيك في حدود التأويل. فإذا كان المعنى يشكل عبر الغياب، فكيف يمكننا ضبط حدود التفسير، فالتأجيل يجعل التفسير النهائي مهمة مستحيلة، وهذا الالاقين قد يفقد التطبيق على المستوى العملي للنظرية في مجالات مختلفة تحتاج إلى يقينيات في استمرارها الواقعي والعملائي، وإن كان يقدم حرية أكبر في تجاوز الأحادية والمركزية والسلطوية.

الاختلاف والتأجيل (Différance)

يمثل مفهوم دريدا (différance) مفهوماً تأسيسياً في التفكيك، باعتباره يجسد معنى مزدوجاً من التأجيل والاختلاف للطبيعة الديناميكية للمعنى، فهو في حالة من التأجيل المستمر لنهائية المعنى، على عكس ما تفترضه لسانيت سوسوير من صلة ثابتة بين الدال والمدلول، فالمعنى على عكس ما تدعيه النظريات التقليدية للغة يبقى في حالة تحول وعدم ثبات، مستجيباً للسياقات المتحركة. فلا وجود لمعنى كامن في اللغة، فالكلمة لا تستمد المعنى من علاقة ثابتة بين الدال والمدلول، بل تستمد دلالتها من اختلافها عن الكلمات الأخرى. فالكلمة أو العلامة تعرف

¹⁰ Mendie, John Gabriel, and Stephen Nwanaokuo Udofia. "A philosophical analysis of Jacques Derrida's contributions to language and meaning." International Journal of Humanities, Management and Social Science (IJ-HuMaSS) 3.1 (2020): 20-34.

¹¹ Derrida, Jacques. "Signature Event Context." Margins of Philosophy. Translated by Alan Bass, University of Chicago Press, 1982, p. 316.

فقط من خلال موقعها ضمن شبكة من العلامات الأخرى، من هنا ينشأ التفاعل بين الاختلافات في شبكة من الترابطات حيث التأجيل يعيد المعنى إلى الاختلاف باستمرار، فلا وجود لمركز أو مرجع ثابت يرسخ المعنى^{١٢}.

يؤكد دريدا من خلال الاختلاف المؤجل على مفهوم التأجيل، حيث يتأخر المعنى على الدوام، لأن المعنى ليس حاضرا بشكل كامل في أي عبارة لغوية، فهو مشروط بالتأويلات والسياقات^{١٣}، ويقوض هذا التأجيل أي مركزية ثابتة، كما يقوض إمكانات التفسير الواحد أو النهائي، فالمعنى في حركة دائمة بين الاختلاف وتأجيل الزمن. فلا يوجد المعنى إلا كآثر، العلامة المتبقية من التفاعل بين الاختلافات، غير أن هذا الأثر يشير أو يرمز إلى ذلك الغياب كأصل ثابت، فالمعنى مرتحن بما هو ليس ذاته.

مفهوم التمثيل الاختلاف المؤجل

سنحاول فهم أساس التمثيل عند دريدا، إذ الاختلاف المؤجل يهدف إلى زعزعة مفهوم التمثيل التقليدي، فالتمثيل في المفاهيم التقليدية يعني إعادة إنتاج للواقع أو المعنى الأصلي الثابت، ولكن دريدا يجعل من التمثيل في حد ذاته عنصرا متغيرا خاضعا للاختلاف والتأجيل، فلا وجود لنقاء الأصل، بل حتى ما نراه أصليا هو مجرد أثر للاختلاف والتأجيل. وهذا ما يجعل اللغة نفسها محل إعادة التقييم، فهي ليست كما تعرفه النظريات التقليدية للغة وسيط شفاف، بل هي ليست إلا نظاما معقدا من الاختلافات والتأجيلات. وهكذا يتبع هذا التغيير أثر عظيم على الاتصال، وبناء المعرفة والتأويل، فاللغة لعبة العلامات.

ومن خلال الاختلاف المؤجل يرى دريدا أنه لا فرق بين القول والكتابة، لأن كلاهما يخضع لنفس عمليات التأجيل، فلا يمكن أن تكون الأولية المعرفية لأحدهما على الآخر، فهو مفهوم يعيد مراجعة التسلسلات الهرمية للغة^{١٤}. ومن خلاله أيضا يشكك في منهج الهرمينوطيقا التقليدية التي هدفها كشف الحقيقة والمعنى الأصلي للنصوص، فتحديد قصد المؤلف أو سياق النص الحاسم، لا ينتهي إلا إلى محاولات عقيمة لأن المعنى دوما مؤجل، ولا يشكل إلا من طريق الاختلافات التي لا تعبرها الهرمينوطيقا الاهتمام الكافي، فالمعنى في النهاية هو تفكيك الشائيات والافتراضات التي تقوم عليها النصية ذاتها^{١٥}.

وعلاوة على ما سبق تأخذ الهوية ومفهومها بعدا مختلفا داخل اللغة والتمثيل اللغوي، فهي ليست جوهرًا ثابت الدلالة في نظر دريدا، بل نتيجة اختلافات مفاهيمية أخرى، ومن هنا لا وجود مستقل للهوية إلا باختلافها عن

¹² Bennington, Geoffrey. "Derrida." A companion to continental philosophy (2017): 549-558.

¹³ Derrida, Jacques, and Alan Bass. "From "Signature Event Context"." The Performance Studies Reader. Routledge, 2025. 183-185.

¹⁴ Derrida, Jacques. Of Grammatology. Johns Hopkins University Press, 2016, pp. 20-50.

¹⁵ Foran, Lisa. Derrida, the Subject and the Other. Palgrave Macmillan, 2016.

الكلمات الأخرى، فالهوية مشروطة وغير مستقرة، حيث لا يتحدد مفهومها ويتشكل إلا من خلال اختلافها عن كلمات مثل (الاضطهاد)، (السلطة)، (القيود).

ففي النظرية الاجتماعية يوفر مفهوم دريدا إطاراً تحليلياً لعلاقات السلطة، والتحييزات السياسية، فهي تبرز مصنوعية وزيف التصنيف للفئات الاجتماعية كالعرق والجنس واللهجة والطبقة، إذ هي لا تملك جوهرية ثابتة كما يحيل للكثير، ولكنها في مسار التكوين ليست إلا اختلافات وتأجيلات داخل الخطابات الاجتماعية، ومن هنا يمكننا إعادة النظر في طرائق العدالة والمساواة الاجتماعيين.

ومن خلال هذا المفهوم المعقد، نستسلم للطبيعة الديناميكية للمعنى وانفتاحه على اللانهاية، لا يميزه إلا الاختلاف والتأجيل، ولكنه من جهة فلسفية خالصة يدفع باتجاه الانفتاح أكثر على تعقيدات اللغة والتمثيل اللغوي، وإذن بهذا المفهوم لا يؤسس دريدا لمنهج في التحليل، بل طريقة تفكير حر للعب اللانهائي بالعلامات والمعنى.

معضلة السياق: حتمية عدم الثبات

يكن جوهر تفكيكية دريدا في تصوره غير المسبوق للسياق بوصفه متغيراً باستمرار، فكل محاولة لتثبيت السياق تولد عدم استقرار، فتتحول القراءة إلى ممارسة تفسيرية، متعددة الأبعاد، يتحرك النص فيها ضمن سلسلة مفتوحة من الاختلافات لا تستقر على أصل ثابت^{١٦}. ويبقى المعنى في حركة دائمة مرهونة بالسياقات المتغيرة في كل قراءة، ومع كل تفاعل للاختلافات داخل اللغة، ويخلق الغياب بذلك مساحات نشطة لممارسة التأويل. وتحت قدرة العلامة على التكرار في سياقات متجددة يتعدّل فيها المعنى.

وقد أشار سوكولوسكي* (Sokolowski) - وحتى على مستوى أوسع في المفاهيم- أن المفاهيم الفلسفية غالباً ما تولد معان تختلف عن سياقاتها الأصلية اختلافاً واسعاً ممثلة بذلك تعدد التأويل تبعاً لتغير السياق. فقد أثرت فينوميونولوجيا هوسرل بشكل واضح في تفكير ياكسون حيث طبق المبادئ العامة لها في نظرية اللغة. وذلك في شكل تفاصيل محذوفة مرة، وتحولات في التطبيق مرة أخرى، هذا مثال واضح على تعددية التفسير في السياقات المتغيرة.

وفي غياب تأثير قصد المؤلف يلعب القارئ دوراً جوهرياً في بناء المعنى، فالنصوص ليست معزولة عن سياقاتها وتاريخها وتفسيراتها، وهذا يعني أن تجارب القارئ وتأويلاته تصبح جزءاً من السياق حيث يشكل المعنى خارج قصيدة

¹⁶ Derrida, Jacques. *Margins of Philosophy*. Translated by Alan Bass, University of Chicago Press, 1982, 315.

* يشير سوكولوفسكي إلى تأثير الفينوميونولوجيا الهوسرلية في عمل ياكسون من خلال المرجع:

Sokolowski, Robert. *Presence and Absence: A Philosophical Investigation of Language and Being*. CUA Press, 2017, p. xviii.

المؤلف. وتبى المعاني والرموز وتتواصل عبر تأويل ديناميكي متأثراً بالسياقات المتغيرة، فالقارئ يفاوض على المعنى في قراءة النص بدلا من محاولة اكتشافه^{١٧}.

غياب النص لا يعني أبدا اختفائه، بل يعني تلك العناصر والمؤثرات التي لا تتواجد صراحة داخل النص الحاضر، ولكنها مهمة لتفسيره وتوجيه معناه، فالنص الغائب يعد بطريقة ما متواجدا داخل النص ومصاحبا له، يؤثر في فهمنا عبر الحذف، الدلالات الضمنية، السياق. فالغياب المتمثل في عناصر معينة يؤثر بشكل واضح على هيكله وفهم تعقيدات الأنظمة الاجتماعية وشبكاتها، فقد يفسر غياب النشاط السياسي عند الجماعات المظلومة بنقص الدافع في التفسيرات التقليدية، في حين أن الغياب قد يفسر بنقص الوعي لدى الجماعات، فالغياب قد يشكل الفهم، ويحفز القارئ^{١٨} لفهم مثل هذه التعقيدات، وفي التحليل النصي يلعب غياب التفاصيل، ووجهات النظر المختلفة إلى التأثير على تفسير القارئ واستنتاجاته دورا حاسما، ويؤكد التفاعل بين الحضور والغياب على أهمية السياق الديناميكي في تشكيل التأويل، ويظهر ذلك بوضوح في الأدب والفلسفة، حيث غالبا ما يلعب الإغفال أو التجاهل أو الدلالة الضمنية دورا مركزيا في تكوين المعنى.

نسبية المعنى

لا أحد يجادل في مكانة دريدا في الفكر المعاصر، فقد تركت التفكيكية أثرا كبيرا في الحركة الفكرية والفلسفية المعاصرة، ولكنها أيضا لم تسلم من النقد، وخاصة تلك الانتقادات المتعلقة بنسبية المعنى، فمصطلحات الأثر والإضافة والسياق المتغير، وحركية العلامات، كلها تدفع باتجاه النسبية. وهو الأمر الذي لا يقره دريدا كنتيجة نهائية لفلسفته.

كما هو معروف أن المعنى عند دريدا دائما ما يكون مؤجلا، ولا يتشكل إلا وفق الاختلاف difference داخل اللغة، وهذا ما يفترض أن المعنى لا يكون حاضرا بشكل نهائي، ولا يكون كاملا أبدا، لأنه يتوقف على التفسير والتأويل الحاضرين للسياق من خلال التفاعل بين الحضور والغياب والقارئ، ورغم ما يتيح هذا الفهم الجديد من إمكانية واسعة لتحليل النصوص والفكر والتأويل، إلا أنه يستبطن نسبية من نوع ما، حيث كل تفسير وكل معنى هو صالح بالضرورة ومقبول، ولا يوجد معيار موضوعي للحكم بالصحة على هذا التفسير سلبا أو إيجاب.

من جهة ثانية يبدو أثر نظرية التعقيد كما يسميها سيليز في الحكم على أفكار دريدا واضحا من خلال التوتر بين المنتج النظري والفلسفي للتفكيك وإمكاناته التطبيقية والمعرفية والتحليلية في تغذية أوجه النسبية، حيث أن

¹⁷ Byrne, David. "A worked example of Braun and Clarke's approach to reflexive thematic analysis." *Quality & quantity* 56.3 (2022): 1391-1412.

¹⁸ Collins, Patricia Hill. "The social construction of black feminist thought." *Women, knowledge, and reality*. Routledge, 2015. 222-248.

تفكيكية دريدا لا تقتصر على تفكيك البنى التأسيسية للفكر والثقافة التقليدية وحسب، بل يتجاوزها إلى التشكيك في أصولها والبنى التي تبني عليها أصلا معرفيا للحقيقة الثابتة^{١٩}.

وأكثر المخاوف التي تثيرها نظرية دريدا التفكيكية هي التبعات الأخلاقية والفلسفية والمعرفية، فالنسبية التي ترسيها تفكيكيته تحد من سلطة المعايير الأخلاقية، حيث انفتاح النص على التأويل وتعدد التفسيرات يشكك في جدوى القرارات الأخلاقية وقيمتها أصلا، وتأجيل المعنى يجعل أي حكم أخلاقي لا يمكن التأسيس عليه، ولا مساءلته أخلاقيا واجتماعيا. ومن هنا تفقد القراءة ضمن مفاهيم السياق الدريدي جدواها أخلاقيا.

أما من الناحية السياسية، فإن النسبية يمكنها تقويض التوافق والسلطة، إذ تمثل تحديا واضحا لياكل الدولة، والإيديولوجيات السائدة وخاصة تلك التي تخضع لها الأغليات الديمقراطية. كما يخلق من جهة ثانية التوجهات التي تعيق العمل كجماعات، نتيجة تعدد التفسيرات، وفي النهاية يمكن أن تكون التفسيرات نفسها تحد قوي للديمقراطية، طريقة الحكم الأكثر مقبولة. ومع ذلك فالجانب الإيجابي في نظرية دريدا هو النقد الموجه للسلطة والتقليد بوصفهما أداتين لكشف حدود السرديات المهيمنة، ولكنها أيضا قابلة للتغير انطلاقا من مفهوم التأجيل ذاته، و سيولة السياق التي تزعزع المعنى وثباته، وإذن كيف تضمن المجتمعات إمكانية التعامل مع القضايا المعقدة، وبناء تماسك مجتمعي*.

وإذا كانت التشكيك في جدوى التفكيك في الأخلاق والسياسة كبيرا، انطلاقا من نسبية النتائج التي تُوصّل لها التفكيكية، فإن الشك الأكثر خطورة هو ذلك الذي يطال المعرفة، حيث تواجه أسس نظرية المعرفة التشكيك في موضوعيتها، تشكيكا ليس له حدود نهائية، هذه النسبية المعرفية تهدد الخطاب الأكاديمي والفكري، إذ من الضروري معرفيا وعلميا حفظ التوازن بين الصرامة والانفتاح، بل يمكنها التشكيك بطريقة دريدا في مناهج المعرفة ذاتها.

ولكن فيما يحتاج به دريدا، أن التفكيكية لا تدعو إلى نسبية عشوائية، بل تدعو فقط إلى الكشف عن التعقيدات والاختلافات داخل النصوص، فالمعنى يتشكل داخل شبكة العلامات والدوال المتداخلة^{٢٠}، التي لا تسمح

¹⁹ Cilliers, Paul. "Complexity, Deconstruction and Relativism." In *Critical Complexity: Collected Essays*, edited by Rika Preiser, De Gruyter, 2016, pp. 139–152.

* ملاحظة : يستعمل سيليرز حجج دريدا دفاعا عن مواقف معقدة في تفكيكيته، فهي ليست بالضرورة أن تكون نسبية أو غامضة، بل فقط لكون معرفتنا تظهر حدا يكشف عن طبيعتها.

* ينظر هذا تحليل في:

Buchoul, Samuel. "A Passion for the Margins: Relativism and Writing after the" Deconstruction of Metaphysics"." (2025)

²⁰ Derrida, Jacques. *Writing and Difference*. Translated by Alan Bass, University of Chicago Press, 1978, pp. 279-293.

باستقرار المعنى، عملية تستهدف الفهم والتأويل. تكشف تعقيد المعنى دون إلغائه؛ معنى النص لا يثبت في مركز محدد، لكنه ليس عديمي.

إذا كانت التفكيكية قد تعرضت لذلك الكم الهائل من التشكيك في جدواها التحليلية في حقول السياسة والأخلاق والمعرفة، فإنها حظيت باهتمام واسع في النقد الأدبي، وأثرت فيه عميقا، معيدة سؤال القراءة وجدوى المناهج التحليلية، وبما أن التفكيكية ليست منهجا صارما للتحليل، فإنها تمنح الحرية لقراءة النصوص من خلال الاختلاف والتأجيل والإضافة والأثر، وانفتاح السياق، فالمعنى في الأدب لا يحمل تلك الحساسية التي تحملها محمولات السياسة والأخلاق والمعرفة التأسيسية.

أعيد للنقد حق التساؤل حول حركية المعنى وثباته، وحق التجاوب مع الافتراضات والفجوات والنص الغائب، باعتبار النصوص عابرة للزمن خاضعة لمبدأ التكرار الذي أكد عليه دريدا، ومن ثم انفتاح السياق وسيلته الذي يعطي القارئ حق تشاركية المعنى، والتعاون في إنتاجه، الذي كان مرهونا في النقد القديم للسياق الثابت والمركز الوحيد، إن فصل التفكيكية بين المؤلف والنص انطلاقا من مفهوم تكرار العلامة، واختلاف الدوال، يعطي الحق في أهمية النص الغائب باعتباره حضورا خفي في النص، ولا يتكشف المعنى إلا من خلاله، وإن بقي قابلا للتأويل بتغير السياق وتحولاته. لأن ضمان ذلك الاستمرار هو الأثر الذي يشكل قناة للارتباط بسابق النصوص والعلامات ولتليه في علامات أخرى لاحقة في نشاط معمم للغرس والبعثة والتوليف^{٢١}، من هذا التصور يأخذ الأدب مفاهيم جديدة تجعل من النقد والإبداع الأدبي متصلان^{٢٢} كشيء واحد، حيث تطمس المسافة بين النص الأدبي وتحليله، فالتنقد أيضا ينتج المعنى داخل النص ولا يشارك اكتشافه فقط، ويصبح القارئ أو الناقد والمؤلف متعاونون في خلق المعنى. والكل يبقى مرهونا للنص فهو أساس تأسيس المعنى لأنه لا شيء يتم خارجه فهو "الذي لا ينتج إلا داخل تغيرات نص آخر، فالنص هو بالأساس إنتاج المعنى: النص الذي ينتج ويوقع نفسه." ^{٢٣} فالغياب والحضور هما النص ذاته.

ويستفيد النقاد من مفهوم الاختلاف والتأجيل difference إعادة النظر في المفاهيم التقليدية للعلاقات اللغوية، وبخاصة العلاقة بين الدال والمدلول وبنائته في النصوص الأدبية، إذ أن هذه العلامات في نظر دريدا لا تقدم المعنى الجاهز، أي ذلك الحضور الظاهري في النص، بل هي دوما في حالة الاختلاف والتأجيل، فالعلامات لا تعرف بتلك الهويات الملتصقة بها، بل بما تختلف به عن الهويات المختلفة عنها، ومن هنا يبقى المعنى مؤجلا دائما، ومرهونا بسياقات جديدة متغيرة، وتأويلات تتبع تلك التغيرات، فالاختلاف هو الطريقة أو الأسلوب الذي يتم فيه إطلاق

^{٢١} خيرة، مكاوي. «مفهوم الأثر في فلسفة جاك دريدا». مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، مجلد ٦، عدد ٣، ٢٠٠٩، ص. ٩٦-١٠٩. (اقتباس عن دريدا،

جاك. الكتابة والاختلاف. ترجمة كاظم جهاد، دار الجمل، ٢٠٠٧، ص. ١٢٧)

^{٢٢} Fang, Xiaoli. "A Review on deconstruction and criticism." Comparative Literature: East & West 1.1 (2017): 134-139.

^{٢٣} معرف، مصطفى. النص ودلالة الغياب في تفكيكية جاك دريدا، مجلة نزوى، العدد ٦٨، ١ أكتوبر ٢٠١١، ص ٥٢

طاقة النص على صنع المعنى^{٢٤}. فالقراءة لا تستهدف التأويلات الثابتة، بل تستكشف طبيعة المعنى في صيرورتها الدائمة والمستمرة.

السياق مقابل البنية

قامت تفكيكية دريدا على زعزعة كثير من المفاهيم التأسيسية للفلسفة والمناهج التقليدية، ومن بين مراجعاتها مفهوم البنية، فالمركز الذي يعطي البنية تماسكها ويحرص عليه كما يظهر ذلك جليا في لسانيات سوسوير أو إنشروبولوجية ليفي شتراوس، الذي يفترض أن العناصر والعلامات لا تكتب المعنى إلا من خلال العلاقات داخل النظام، نظام البنية، الأمر الذي يراه دريدا صورة للحضور المتخفي،^{٢٥} ربما حدث في تاريخ مفهوم البنية ما يمكن أن يُسمى حدثاً، لو لم تكن هذه الكلمة المحملة تنطوي على معنى يحاول الفكر البنيوي - أو البنيوياتي - تحديداً أن يقلّصه أو يشكّك فيه " فالبنية هنا تظل رهينة المركز الذي لا يظهر، أصلاً ثابتاً، أو دالاً متعالياً.

فدريدا يرفض مركزية البنية بوصفها إغلاقاً، إذ أفعال التأويل شرطها قابلية العلامة للتكرار، وهذا يعني بالضرورة إعادة إنتاج خارج السياق الأصلي، ذلك أن السياق نفسه يتكرر بتكرار العلامة والقراءة، بل العلامة نفسها يمكن اقتباسها خارج سياقها في نسق النص "فكل علامة، لغوية كانت أم غير لغوية، منطوقة أم مكتوبة، بوصفها وحدة صغيرة أو كبيرة، يمكن اقتباسها، ووضعها بين علامات اقتباس؛ ومن ثمّ يمكنها أن تنفصل عن أي سياق معطى، مولّدة عدداً لا نهائياً من السياقات الجديدة على نحو لا يمكن استنفاده أبداً^{٢٦} وإذن لا يمكن للبنية أن تتحكم في السياق أو العلامة، فالتكرار طبيعة العلامة، ولا استقرار طبيعة السياق.

وعبارة دريدا السابقة قوية الدلالة على رفض الإحاطة بالسياق، أو الإغلاق، فاقتباس العلامة وفق تعبيره، وقدرتها على التوضع من جديد في سياقات مختلفة دون فقدان هويتها، هو بحد ذاته افتضاح لقصور النظام البنيوي. فالسياق بهذا المفهوم مجالا ديناميكية فاعلا، تتبدل فيه مدلولات العلامة عبر التكرار والتحوّل، إنه لم يعد كما في البنيوية خلفية ثابتة تثبت ماهيات العلامة، فالمعنى في علاقته بالعلامات لا ينتج إلا بتفاعلها مع بعضها، وليس خاصية ذاتية للعلامة.

وفي خلاصة بسيطة أن التحليل يقوم مبدئياً على التفكير في البنية من خلال السياق، والتفكير في السياق من خلال انعدام أي بنية مستقرة، فالترباط بين العلامة وسياقها، بين التكرار والاختلاف، وبين اللعب البنيوي والسيولة

^{٢٤} حافظ، صيري. الشعر والتحدي وإشكالية المنهج مجلة الفكر المعاصر، مركز الإنماء القومي، العدد 38، آذار 1986، ص.

التاريخية للنص، هو الذي يولد معنى لا يمكن احتواؤه ضمن نظام مغلق، ويؤسس لفهم النصوص بوصفها كيانات دينامية في حركة مستمرة من الاختلاف والتأجيل^{٢٧}.

خاتمة

يظهر السياق من خلال الدراسة قوة ديناميكية فاعلة في المعنى، وأن الغياب عنصراً تأسيسياً للمعنى في النص، وليس مجرد خلفية ثابتة بل هو جزء من النص ذاته وإن كان غير ظاهر. وهذه بعض النتائج:

أولاً: دل البحث أن السياق قوة فاعلية وليس خلفية مركزية يستكشف المعنى من خلالها، فالسياق أفق متغير يقوم بصناعة الدلالة، يظل مشروطاً بالسياق المرتبط باختلاف القراءة. حيث خلفيات القارئ من تجارب وخبرات و ثقافة وتأويل تولد السياق المفارق.

ثانياً: دل البحث أن الغياب ركن ركين في التفكيكية، فالمعنى ينبعث من تفاعل الغياب والحضور، بل أكثر الأحيان يكون الغياب هو من يؤسس للمعنى. ومن خلال الأثر المتولد نتيجة أن كل علامة تنتج عن مغابقتها عن ما سواها، وبهذا تتشكل الدلالة.

ثالثاً: التحليل التفكيكي يكشف عن المضمرات والفجوات في النص، وفي بنياته الجوهرية النصية والخطابية. فالافتراضات تكشف عمق النص الغائب وتبرز تناقضاته.

رابعاً: يكشف البحث عن جوهرية مصطلح الاختلافية *différance* بوصفها من شروط إمكانية اللغة، إذ أن الدلالة لا تكون حاضرة حضوراً كاملاً، بل تتأجل باستمرار في سلسلة من الإحالات.

خلاصة القول أن تحليلية دريدا ليست في جوهرها منهجاً تحليلياً بل آلية لكشف النصوص الغائبة وقراءتها ضمن مفاهيم وآليات جديدة، تقوض المركزية، كما أنها تعيد مراجعة كثير من المفاهيم والمسلمات اللغوية والفلسفية عن الحقيقة واللغة والتصورات الموروثة. وإذا كان هناك من تحفظ فإن دريدا عندما قال بعدم يقينية المعرفة اعتذر لنفسه، فمحاولة التفكيك قد تعيد مراجعة التوازنات الثقافية والمعرفية في العالم، وتعطي في النهاية للتمهيش حق الظهور، وللغياب حق الأولوية المغيبة.

قائمة المراجع

²⁷ Caputo, John D. The Prayers and Tears of Jacques Derrida: Religion without Religion. Indiana University Press, 1997, pp. 6-7.

١. حافظ، صبري، الشعر والتحدي وإشكالية المنهج، مجلة الفكر المعاصر، مركز الإنماء القومي، العدد 38، آذار 1986.
٢. خيرة، مكاي، مفهوم الأثر في فلسفة جاك دريدا، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، مجلد ٦، عدد ٣، ٢٠٠٩.
٣. دريدا، جاك، الكتابة والاختلاف، ترجمة كاظم جهاد، دار الجمل، ٢٠٠٧.
٤. سعيد، إدوارد، الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة محمد عناني، دار رؤية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦.
٥. معرف، مصطفى، النص ودلالة الغياب في تفكيكية جاك دريدا، مجلة نزوى، العدد ٦٨، ١ أكتوبر ٢٠١١.

1. Balkin, Jack M. "Deconstructive Practice and Legal Theory – Part I." The Yale Law Journal, vol. 96, no. 4, Mar. 1987.
2. Barry, Peter. Beginning Theory: An Introduction to Literary and Cultural Theory. 4th edition, Manchester University Press, 2017.
3. Bennington, Geoffrey. "Derrida." A companion to continental philosophy, 2017.
4. Buchoul, Samuel. "A Passion for the Margins: Relativism and Writing after the Deconstruction of Metaphysics." ,2025.
5. Byrne, David. "A worked example of Braun and Clarke's approach to reflexive thematic analysis." Quality & Quantity, vol. 56, no. 3, 2022.
6. Caputo, John D. The Prayers and Tears of Jacques Derrida: Religion without Religion. Indiana University Press, 1997.
7. Cilliers, Paul. "Complexity, Deconstruction and Relativism." In Critical Complexity: Collected Essays, edited by Rika Preiser, De Gruyter, 2016.
8. Collins, Patricia Hill. "The social construction of black feminist thought." Women, knowledge, and reality. Routledge, 2015.
9. Critchley, Simon, and Timothy Mooney. "Deconstruction and Derrida." Continental philosophy in the 20th century. Routledge, 2015.
10. Davis, Kathleen. "Deconstruction." Routledge encyclopedia of translation studies. Routledge, 2019.
11. Derrida, Jacques, and Alan Bass. "From "Signature Event Context"." The Performance Studies Reader. Routledge, 2025.
12. Derrida, Jacques, and Derek Attridge. Acts of Literature. Routledge, 2017.
13. Derrida, Jacques. "Signature Event Context." Margins of Philosophy. Translated by Alan Bass, University of Chicago Press, 1982.
14. Derrida, Jacques. Margins of Philosophy. Translated by Alan Bass, University of Chicago Press, 1982.
15. Derrida, Jacques. Of Grammatology. Johns Hopkins University Press, 2016.

16. Derrida, Jacques. *Of Grammatology*. Translated by Gayatri Chakravorty Spivak, Johns Hopkins University Press, 1976.
17. Derrida, Jacques. *Writing and Difference*. Translated by Alan Bass, University of Chicago Press, 1978.
18. Foran, Lisa. *Derrida, the Subject and the Other*. Palgrave Macmillan, 2016.
19. Gasché, Rodolphe. *The Tain of the Mirror: Derrida and the Philosophy of Reflection*. Harvard University Press, 1986.
20. Mendie, John Gabriel, and Stephen Nwanaokuo Udofia. "A philosophical analysis of Jacques Derrida's contributions to language and meaning." *International Journal of Humanities, Management and Social Science (IJ-HuMaSS)* 3.1 .2020.
21. Sokolowski, Robert. *Presence and Absence: A Philosophical Investigation of Language and Being*. CUA Press, 2017.